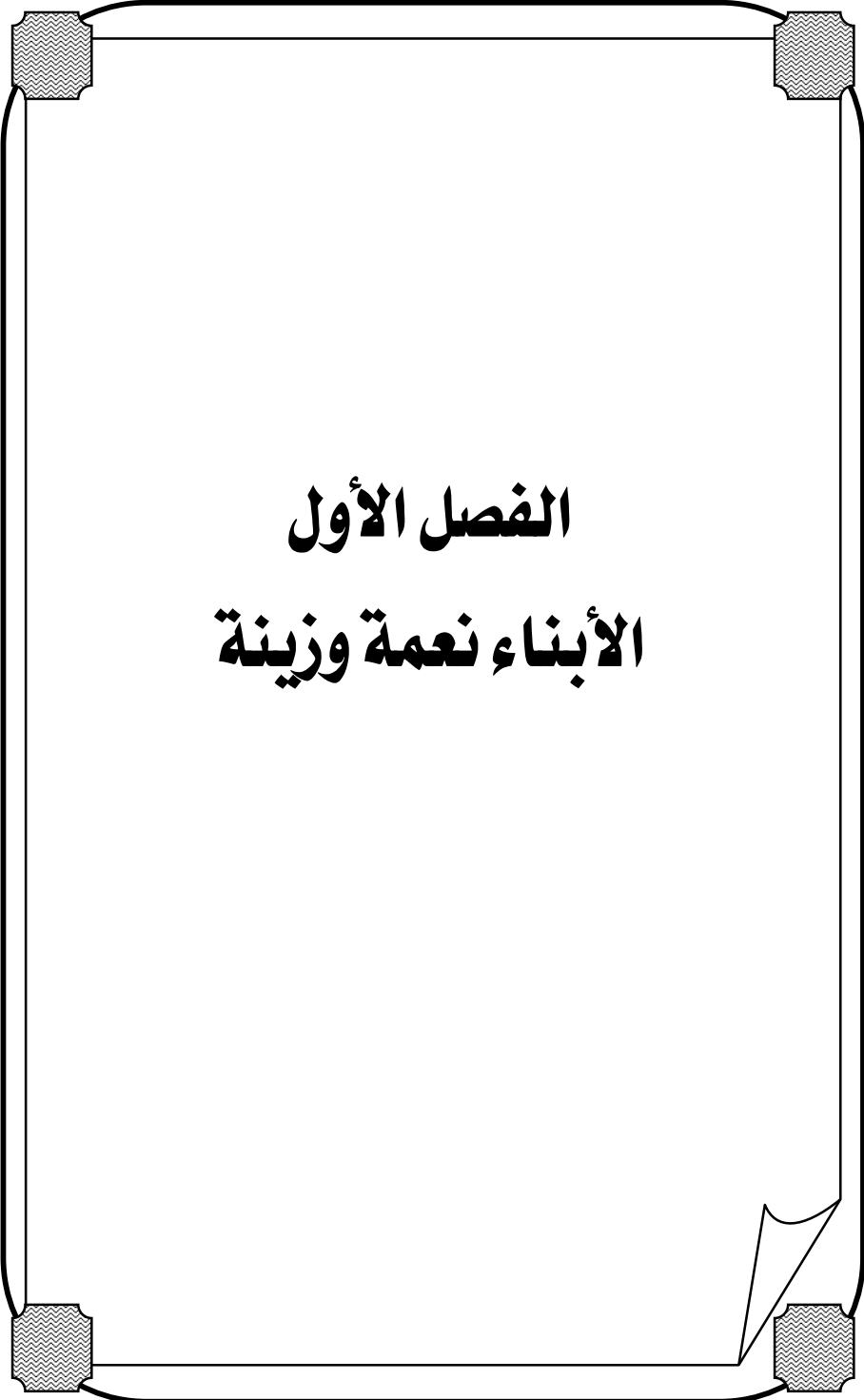




الفصل الأول

الأبناء نعمة وزينة

مقدمة

إن من نعم الله على الإنسان نعمة الأبناء، وهى نعمة تستوجب أن نعتنى بها غاية الاعتناء، وأن نحرص على حمايتها والحفاظ عليها؛ لذلك بعث الله رسوله محمد ﷺ بكتاب مبارك فيه التوجيهات والإرشادات التى تجعل الأبناء ذرية طيبة صالحة تبر الوالدين عند الكبر كما جاء فى الوصايا القرآنية.

والأولاد نعمة من الله - سبحانه وتعالى - يهبها لمن يشاء ويمسكها عمن يشاء، ولما كانت هذه النعمة تسر الوالدين بشرت الملائكة بهم رسل الله من البشر وزوجاتهم، قال تعالى: ﴿يَرْكَرِيَانَا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، كما قالت عن امرأة إبراهيم الخليل: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

ولهذا، ذم الله - تعالى - من تبرم من الأنثى واستثقلها؛ لأنه - تعالى - هو الذى وهبها كما وهب الذكر، والحياة لا تستمر إلا بالذكر والأنثى معا، فقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩].

ولاشك أن من أجل النعم وأعظمها على الإنسان أن يرزق بالذرية، لقول الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ولكن هذه النعم مسؤولية وأمانة فى رقابنا، ومسؤولية الآباء تعظم، قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»، فالأطفال هم امتداد وجود هذه الأمة وأساس كيانها، والإسلام وضع لنا مبادئ السعادة فى الدنيا والآخرة، ومن بينها ما يتعلق بالأسرة والطفل، فإذا أحسنّا تربية الطفل، استطعنا أن نوجد أمة قوية.

إذاً فالأسرة هي المحضن الأول والطبيعي الذي يترعرع فيه الطفل، وهي أعظم شركة مقارنة بالشركات المالية والتجارية؛ وذلك لما تتطلبه من حسن تصرف وتدبير حيال العنصر البشري وليس المادي، ولعل من الحكم الإلهية أن جعل مدة طفولة الإنسان تفوق مدة طفولة كل المخلوقات؛ وذلك حتى يأخذ الطفل حظه كاملاً من الرعاية والتربية، مما يدل على أنه سيد المخلوقات، فالإنسان قبضة من طين ونفخة من روح؛ ولهذا سجدت الملائكة له، فأصبح الإنسان سميعاً بصيراً متكليماً، ولم يدعه الله - تعالى - هائماً، فأُنزل له الشرائع تهم جميع جوانب حياته، فنجد الإسلام خصه بحقوق فأتت القوانين الوضعية مثل حقه في اختيار الأم الصالحة.

الأولاد نعمة:

من أعظم نعم الله على الإنسان في هذه الحياة نعمة الأولاد، فهم منحة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ولو كان فقيراً، ويمنعها عمن يشاء من خلقه ولو كان غنياً، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].



وإذا أردت أن تعرف عظيم منة الله عليك بهذه النعمة، فانظر إلى من حرمها كيف يحترق ويتمنى أن يرزق ولدا يملأ عليه دنياه فرحاً وسروراً.

الأولاد زينة:

فهم زينة الحياة الدنيا، وهم زهرتها، يخففون عن آبائهم متاعب الحياة وهمومها، وجودهم في البيت كالأزهار في الحدائق، يصفون عليها البهجة والسرور، تسر الفؤاد مشاهدتهم، وتقر العين رؤيتهم، وتبتهج النفس بمحادثتهم، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

* وهم بسملة الأمل، وأريج النفس، وريحان القلب، وهم أكبادنا التي تمشي على الأرض، «إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض».



الأولاد فتنة:

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، والافتتان بهم يحصل من وجوه منها:

- أن الولد قد يحمل أباه على الكسب الحرام من أجله، فيجتهد في جمع المال من طريق الحرام من أجل ابنه.

- ومنها: أن الولد قد يحمل أباه على البخل، فيأتي الوالد كي يتصدق فيأتيه الشيطان ويقول له: ولدك أولى وأحق، فيمسك عن الإنفاق في سبيل الله من أجل ابنه.

- ومنها أن الولد قد يحمل أباه على الجبن، يأتي الوالد كي يجاهد في سبيل الله فينظر إلى ولده فيفتن به ويتخلف عن الجهاد.

- ومنها أن الولد قد يمرض مرضاً شديداً، فيجزع والده حزناً عليه، فيحمله ذلك على الاعتراض على قدر الله وعدم الرضا بقضائه.

- كما أن الأولاد قد يكونون سبياً في أن يشغل الأبوان عن ذكر الله؛ ولهذا حذرنا الله من الانشغال بهم عن ذكره، وعد من يفعل ذلك خاسراً فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنلَهُنَّ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا أَوْلَدُنَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، بل إنهم قد يصبحون عدواً لأبائهم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحٍ مِّنْ أَوْلَدِكُمْ وَعَدُوِّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

الأولاد أمانة ومسئولية:

- الأولاد أمانة عند الوالدين، كلفهما الله بحفظها ورعايتها، وأوصاهما بتربيتهم تربية صالحة في دينهم ودنياهم، وهم أولى الناس بالبر وأحقهم بالمعروف، والأبوان مسئولان بين يدي الله عن تربية أبنائهم، قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسئولة عن رعيته» متفق عليه.

- وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أدب ابنك فإنك مسئول عنه، ماذا أدبته وماذا علمته؟ وهو مسئول عن برك وطواعيته لك. فهل سيقوم الآباء بالحق الذي أوجبه الله تجاه أبنائهم؟ وهل سيحفظ الآباء هذه الأمانة التي حملهم الله إياها؟ هل سيؤدي الآباء المسؤولية التي كلفهم الله بها؟



حقوق الطفل

حقه في اختيار الأمر الصالحة:

ونذكر هنا قصة الرجل الذي جاء إلى عمر - رضي الله عنه - يشكو عقوق ولده، فاستعظم عمر الأمر وكاد يوقع عليه العقاب لولا أن بادره الغلام فسأله: وما حقوق الأبناء على الآباء يا أمير المؤمنين؟ أجاب عمر: على الآباء أن يحسنوا اختيار الأم ويحسنوا اختيار الاسم ويحسنوا التربية، قال الغلام: ولكن أبي اختار أمي من الإماء، وأسماي (جُعل) وبدل التأديب كلفني رعي أغنامه وإبله، فقال عمر موجهًا حديثه هذه المرة للأب: اذهب فقد عققته قبل أن يعقك.

حقه من الرضاعة:

أباح الشرع للأم أن تظفر حفاظًا على طفلها وعليها، وتؤكد أبحاث علمية اليوم أهمية لبن الأم، من ذلك أن نسبة الأطفال الذين يتناولون السجائر لم

يرضعوا رضاعة طبيعية. هذا، فضلاً عما في الرضاعة الطبيعية من وقاية من الأمراض بالنسبة له ولها، فاللبن في الثدي ما جعله الله تعالى إلا ليخرج، أما إن حبس قصدا حفاظا مثلاً على الرشاقة، فإن العواقب تكون عليها وخيمة.

حقه في الكرامة:

يقول الله عز وجل: ﴿فَاخْوَنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، فجعل الأخوة لمن يجهل الأبوة، فإذا وجد من يقول هذا عبدي من المسلمين، ومن أهل الذمة من يقول: هذا ابني فإنه ينسب إلى هذا الأخير لما في المعنيين من فوارق، وجعل حرمة أعظم شأناً أن تداس.

حقه في اللعب:

هناك خلل في البناء المنزلي المعاصر وخاصة في البيئة العربية، تجدد العناية بالمطبخ وقاعة الجلوس وغرفة النوم إلا لعب الطفل فلا مكان له، فيحاصر المسكين بين هذه الغرف فيهضم حقه في الحركة واللعب.

وهناك أمثلة تؤكد على هذا الحق منها:

موقف الرسول ﷺ أثناء خطبة الجمعة حيثما رأى الحسين يتكفأ، فنزل عليه السلام من المنبر وحمله ثم قال مبتسماً: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة). فكيف بنا اليوم نجبر الأطفال بدعوى اللعب والضحك على مغادرة المسجد، بل من المصلين من ليس له من شغل سوى طرد الأطفال من المسجد، ظناً منه أنه يحسن صنعاً، ألا فليعرف هؤلاء أنهم يرتكبون جريمة في حق هؤلاء الأطفال.

ومن الأمثلة أيضاً: لما دخل الأقرع بن حابس على النبي ﷺ، وكان يلاعب الحسن والحسين فقال: أنت النبي ﷺ، تفعل هذا، إن لي عشرة من الأبناء والله ما

قَبَلْتُ واحداً منهم ولا شممته، ولا كذا، فقال له ﷺ: وماذا أفعل إذا كان الله قد نزع من قلبك الرحمة، من لا يرحم، لا يرحم.

حقه في النسب:

ومن تكريم الإسلام للطفل أن ينسب إلى أبيه قال ﷺ: «من دعي إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام» [البخاري ومسلم].

حقه أن يعاد إذا مرض:

قصة النبي ﷺ مع عمير لما مات له النغير (طائر صغير) قضى معه النبي ﷺ وقتاً يواسيه ويصبره على فقدان عصفوره المحبوب، وكل ما مر به قال له: (أين النغير يا عمير؟).

حقوقه المالية:

من الورثة.

خلاصة القول:

لقد تفضل الله على عباده بنعم لا تحصى، ومن لا تستقصي، فكل نعمة يراها العبد على نفسه هبة من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، واعلموا أن هناك نعماً خصَّ الله بها فئة من الناس وحرّمها فئة أخرى، ابتلاء منه سبحانه، وتمحيصاً لعباده، ليميز الخبيث من الطيب، قال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

فمن أعظم النعم على الإنسان بعد نعمة الإسلام، نعمة الولد، ولا سيما الولد الصالح. ونعمة الولد لا يعرف قدرها إلا من حُرّمها، فكم من الناس من مُنِع

نعمة الأبوة والأمومة، فتراه يسعى جاهداً ليلاً ونهاراً، بكل ما أوتي من جهد ومال للحصول على الولد الذي فقده، ولكن قدرة الله تعالى فوق الطاقات والأموال المهدرات؛ لأنه سبحانه عليم قدير، يختبر العباد، ويمتن على الإنسان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠).

فأولادنا ثمار قلوبنا، وفلذات أكبادنا، وأحشاء أفئدتنا، وزينة حياتنا، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. الأولاد قرة الأعين، وبهجة الحياة، وأنس العيش، بهم يحلو العمر، وعليهم تعلق الآمال، وبركة تربيتهم يستجلب الرزق، وتنزل الرحمة، ويضاعف الأجر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [أخرجه مسلم].

وقال ﷺ: «وَإِنَّ لَوْلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» [أخرجه مسلم]، فاحذروا من التفريط في تربية الأبناء، أو التخلي عن المسؤولية تجاههم، فهذا هو الغدر، وتلكم هي الخيانة، وذلكم هو الغش الموصل إلى النار. أخرج البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، من حديث مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطَ بِهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»، فارعوا أبناءكم، وأدوا أماناتكم، وانصحووا لأولادكم، فكلُّ مسؤول عن رعيته.